

وظيفة "القلق" في بناء الشخصية في رواية "بيت النار" لهشام مشبال
**The function of "anxiety" in the building of the character in the
novel "Bit Ennar" of Hicham Mechbal**

*د. حسن الطويل

أكاديمية الشرق لمهن التربية والتكوين، المغرب.

البريد الإلكتروني: Attaouil_hass@hotmail.fr

تاريخ الإرسال: 2021/07/14	تاريخ القبول: 2021/08/11	تاريخ النشر: 2021/08/31
---------------------------	--------------------------	-------------------------

ملخص البحث

يروم هذا المقال استجلاء الخصائص الفنية التي توظفها رواية هشام مشبال "بيت النار" في بناء شخصياتها في وسط يتسم بالضيق وتلاشي الأفق الإنساني، كما يحاول إبراز هيمنة سمة القلق على مجريات الرواية وطاقاتها التصويرية المتناغمة مع واقع المصير الذي يؤول إليه الفرد في سياق يستسلم للإحباط والبؤس وجراح الذاكرة. وقد سعى المقال إلى تحقيق هاتين الغايتين بتوسله بمنهجية بلاغية منفتحة على سياق نشوء النص وتكوُّنه.

الكلمات المفتاحية: حكي؛ ذاكرة؛ تحولات؛ إحباط.

Abstract:

This article aims to elucidate the artistic characteristics that Hicham Mechbal's novel "BIT ENNAR" employs in building its characters in a medium characterized by loss and human's horizon disappearance. It also attempts to highlight the dominance of anxiety over the novel's events, and its pictorial energy harmonious with the individual's fate in a context full of frustration and misery. In order to achieve these two purposes, the author used a rhetorical methodology that is open on the context of text's emergence and formation.

Keywords: storytelling, memory, transformations, frustration.

* المؤلف المرسل: د. حسن الطويل Attaouil_hass@hotmail.fr

وظيفة " القلق " في بناء الشخصية في رواية "بيت النار" لهشام مشبال

مقدمة:

في رواية "بيت النار"¹، يحاول الروائي المغربي هشام مشبال أن يتلمس شعور الذات الإنسانية في تفاعلها الإشكالي مع الذاكرة، والتحوّل الحضاري، والارتباط بالهوية، والإخفاق المجتمعي في صناعة نموذج الحضاري الناجح. والحق أن هذه الصّفة الإشكالية للرواية، تجعلها كتابة إبداعية تتخذ من التخييل وسيلة لتصوير تحولات الذات، ولتعميق الإحساس باختلالات الواقع ومشكلاته المتنامية . والأمر الواضح، أن هذا الفعل الإبداعي، يروم تعقيدَ الوقائع التاريخية والتحوّلات الاجتماعية، عبر تبثير الشعور الذاتي للفرد، وتقديمه في صورة مأزومة، تتداخل فيها عوامل كثيرة ومتعددة. والرواية، كما يؤكد ذلك عددٌ من الباحثين، لا تنفصل عن "التعقيد"؛ لأن غايتها الأساس تتمثل في تجاوز المعالجة الجاهزة للمشكلات الإنسانية²، وخلق وجهات النظر اتجاه موضوع ما، عبر تقوية الإحساس الإبداعي بأزمات الإنسان النفسية والاجتماعية والوجودية.

وتتمثل صورة "التعقيد" في رواية هشام مشبال، في مساءلة أزمة الواقع المجتمعي في منطقة "غمارة" المغربية في فترة زمنية ممتدة من تاريخ الاستقلال إلى اللحظة الراهنة، وهي الأزمة التي خيّمَت على الأرض والطباع البشرية والشعور الإنساني، وعصفت بالأحلام والانتظارات، وصنعت حياة ثقيلة، وأنتجت ذواتا إنسانية مسكونة بالقلق والفجيرة. وأثناء اشتغال هذا "التعقيد" عبر آليات السرد، تتناسل الأسئلة، ويختفي كلُّ أثر للجواب الجاهز عن المشكلات، ويبرز القلق فقط.

¹ صدرت عن : دار الأمان (الرباط) / منشورات الاختلاف (الجزائر) / منشورات ضفاف (بيروت)، ط1 ، 2019.

ومن روايات هشام مشبال الأخرى:

- "الطائر الحر". منشورات بلاغات ، مطبعة الأمنية، الرباط، 2009.

- "أجراس الخوف" . دار الأمان (الرباط) / منشورات الاختلاف (الجزائر) / منشورات ضفاف (بيروت)، 2014.

² يؤكد ميلان كونديرا صلة الرواية ب"التعقيد" بقوله : " إن روح الرواية هي روح التعقيد . كل رواية تقول للقارئ : " إن الأشياء أكثر تعقيدا مما تظن ". إنها الحقيقة الأبدية للرواية ، لكنها لا تُسمع نفسها إلا بصعوبة في لفظ الأجوبة البسيطة والسريعة التي تسبق السؤال وتستبعده". (فن الرواية . ترجمة : بدر الدين عروذكي . دار الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع (دمشق) ، ط1، 1999. ص: 25). وبكلمات أخرى، تحاول الرواية خلق عالم إبداعي مسكون بالأسئلة المفتضية إلى تعقيد القضايا واستشكالها . والقارئ المتفاعل مع رواية ما ، دائما ما ينهي القراءة وفي ذهنه أسئلة مضاعفة عن القضايا المطروقة.

وقد سعينا في هذا المقال إلى تتبع مستويات الرؤية الإبداعية التي قام عليها الخطاب الروائي في "بيت النار". وتمثل هذه المستويات مكونات الحكيم (الحدث - الشخصية - الزمن - المكان - صيغ السرد وطرائقه - التصوير ...) التي اعتاد النقاد معالجتها في النصوص الروائية من زوايا متباينة، تتراوح بين النظر البنائي والنظر الدلالي-التأويلي. وما نحاوله هنا ، يهدف إلى تحليل قدرة مكونات الحكيم على ترجمة نزوع الرواية نحو تصوير الإخفاق الحضاري وأثره على شعور الفرد. أو يمكننا القول، إن محاور البحث القادمة تحاول التفاعل مع السؤال التالي:

- كيف استطاع هشام مشبال أن يطوِّع أدوات الحكيم الروائي للتماهي مع رؤيته الإنسانية بخصوص أزمة الذات في ظلِّ صور الإخفاق المحيطة بها؟

وبخصوص المنهج المعتمد في بناء مقارنتنا التحليلية للرواية، حاولنا الأخذ بما تمدُّنا بها النظرية البلاغية من إجراءات تطبيقية، تساعد على الإمساك بخصوصية اللغة داخل الخطاب، وعلى تحليل أشكال توظيف مكونات السرد (الحدث - الشخصية - الزمان ...)؛ فرغم أن البلاغة التقليدية لا تتعامل مع خصائص السرد، وتكتفي بإضاءة المكون اللغوي في الخطاب، فإن البحوث البلاغية المعاصرة المشتغلة ضمن مشروع "بلاغة الرواية"، تقدِّم جملة من المقترحات المعينة على فهم خصوصية السرد الروائي، وفي هذا الصدد نحيل على دراسة محمد مشبال المهمة "الرواية والبلاغة، نحو مقارنة موسعة للرواية العربية"³.

³ دار كتارا للنشر (قطر)، ط 1، 2019.

1- بناء الحدث ورهان التعقيد:

يمكن اختزال جوهر الرواية، في صورتها الحركية المفصلة عن الأحداث الناشئة عن توظيف تقنيات الاسترجاع والحكي على ألسنة الشخصيات، في هذه المجموعات الحداثيّة (المقاطع السردية)⁴ البارزة:

• يعود "مختار" رفقة زوجته الإسبانية " فلورا" إلى قريته بمنطقة "غمارة" بعد غياب طويل، من أجل الاستشفاء الروحي، ورغبةً في تحقيق حلم الكتابة الإبداعية عن تاريخ المنطقة وأسرارها وتحولاتها.

• يتخذ "مختار" و "فلورا" منزل الجدة "حمّامة" مسكنا لهما ، ويستقران في "بيت النار" تحديداً ، وهي غرفة قروية "تحتوي" الكانون" الذي يُستعمل للتدفئة والطهي"⁵. وقد وجد الزوجان في هذا الفضاء السكنية والراحة، واستشعرا فيه بعض الدفء.

• ينخرط "مختار" (مع زوجته دائما) في الأجواء العائلية لقريته، ويشهد عرس بنت خالته "مريم"، وبعده بأيام تهتز القرية على وقع جريمة القتل التي يقترفها "يونس" أخ "مريم"، ثم ينتحر ، ويخلف في قلب أمّه "رحمة" عُصّة لا تُشفى.

• يحاول "مختار"، بمساعدة زوجته، تجاوز قلقه النفسي الذي يتأجج داخله بالتفكير في الماضي، والوقوف على إخفاقات الحاضر في القرية ومحيطها، ويسعى إلى توفير الفرصة المناسبة لكتابة عمله الإبداعي عن "غمارة". وجددير بالذكر أن "فلورا"، هي الأخرى، كان لها اهتمام بالكتابة عن هذه المنطقة؛ فقد كانت تهتم بدراسة تقاليد الأهالي، وتهتم أكثر بالبحث عن آثار جدتها "نيفادا" التي استقرت بمنطقة "الجهة" في فترة "الحماية" الإسبانية للمغرب.

• يزور الزوجان مناطق كثيرة في "غمارة" لتقصي أسرار الأرض، والاستماع إلى حكايات كبار السن عن تاريخ هذه الرقعة الجغرافية، لاسيما ما يتعلق بحرب الريف بقيادة محمد بن عبد الكريم

⁴ يُعدُّ المقطع السردى أداة تقدير تجعلنا " نتوقع لكل ملفوظ سردي نثر عليه في الخطاب ملفوظات أخرى يفترضها أو يقتضيتها منطقيا ". معجم السرديات : تأليف مشترك ، إشراف : محمد القاضي . دار محمد على للنشر (تونس) ، ط1، 2010. ص:

⁵ رواية " بيت النار". هامش الصفحة: 16

د. حسن الطويل

الخطابي، والتي شارك فيها جدُّ "مختار" بوصفه قائدا لإحدى فرق الجهاد في غرب الريف الكبير. وعند زيارة بعض المناطق من "غمارة" والوقوف على واقعها، دائما ما يشعر "مختار" باليأس، ويحس بأن المكان ينحدر إلى الأسوأ.

- يتمكن "مختار" من الحصول على روايات مهمة، وعلى كُتب تتناول تاريخ "غمارة" وعاداتها، ويشرع في تدوين أجزاء من عمله الإبداعي في فترات متفرقة تتحكم فيها تقلباته النفسية الحادة.
- تنتهي الحكاية بحدث مفاجئ، يضاعف آلام "مختار" النفسية؛ فبينما كان يتجول في شاطئ القرية، شدّه منظرُ البحارة وهم يسحبون من البحر حملا ثقيلا، وقام هو الآخر بمساعدتهم على السحب، حتى تفاجأ الجميع أن ما يُسحب هو جُثَّة إنسان.

إذا تأملنا الحبكة النازمة لهذه الأحداث، يمكن أن نلاحظ جنوح هشام مشبال نحو إحداث تحولات داخلها، من أجل الإيحاء باستمرار الأزمة ورسوخها في الزمان والمكان والنفوس. وأهم عُقدتين تؤكدان هذه الملاحظة ما يتعلق بجريمة "يونس" وانتحاره، وهي عُقدة لها سوابق ولواحق، فأما السوابق فتتمثل في فشله في الظفر بحب "سعاد"، وهروبها منه ليلة العُرس، أما اللواحق فلها علاقة بأثر الجريمة والانتحار على عائلته، وخاصة على أمّه "رحمة" التي انتهت بها الأمر إلى الاستسلام للوساوس القهرية وبقية الأمراض النفسية الفتاكة. أما العقدة الثانية، فهي عقدة الجثة التي سحبها البحارة من البحر، والتي أنهت الأحداث في صورة مأساة، وأوحت باستمرار الفجيعة، وتشكّلها في صور أكثر إيلاما.

ومن صور المجاز⁶ السردي التي تناغمت مع هذا المعنى الهادف إلى تقوية الإحساس بالنهاية المخيِّبة لذات السارد وفضاء القرية، ما حصل لذلك النسر الذي رآه "مختار" يربض فوق سطح البيت شاردا قبيل غروب الشمس، وحين رفع عينيه إليه ثانية، رأى الأطفال يُجْرُونه: "يشرعون جناحيه الطويلين المزخرفين ويساعدونه على التحليق. لم يخلق.. ظل مثل صخرة انجبت في

⁶ نفيدها هنا أننا نتعامل مع المجاز - وغيره من الصور البلاغية - تعاملًا غير مقيد بدلالته الضيقة في البلاغة المدرسية؛ فالجهاز في الرواية لا يعني مجاز الجملة المعزولة عن سياقها النصي والتداولي، إنما هو صورة موسّعة مرتبطة بسياقات من قبيل "التكوين النصي"، ومكونات الجنس أو النوع، وعملية القراءة" (محمد مشبال: البلاغة والأدب، من صور اللغة إلى صور الخطاب، دار العين للنشر) القاهرة، ط 2010. ص: 89.

وظيفة " القلق " في بناء الشخصية في رواية "بيت النار" لهشام مشبال

القعر .. ربطوه بجبل وأخذوا يسرعون .. وهو مستسلم ..⁷ . إن النسر هنا؛ صورة أخرى لذات ضائعة ، ينتهي بها الصراع إلى الاستسلام لإعصار لا تملك مقاومته بروحها الشاردة . وبين ثنايا العقدين المذكورتين ، نعر في الرواية على عُقد أخرى صُغرى، تمثل صدمة الزوجين من واقع "غمارة" وتحولاتها السلبية غير المتوقعة، على غرار شعور "فلورا" بصدمة ثقيلة، وهي تتأكد أن منزل جدتها "نيفادا" الذي كان تحفة معمارية فاتنة، حسب ما سمعته من روايات، ورأته من صور، قد تحول إلى بناية مشوهة، في أسفلها مقهى يُدخّن فيه الحشيش ... وعلى غرار الآلام التي كانت تعصر قلب "مختار"، وتثنيه عن الكتابة والاستمتاع بفضاء الذكريات، وهو يطالع الواقع المأساوي للأرض وللإنسان في قرينته.

وفي الرواية مقاطع متفرقة تلخّص تحولات الإنسان المعقّدة في الفترة الزمنية التي ترصدها الرواية، من قبيل المقاطع التي تتبعت سيرة الفتاة الجميلة "سعاد"، التي كان يشتهيها "مختار"، وانتهى بها الزمن بعد هروبها من ليلة عُرسها، إلى امرأة واجمة وفاقدة للرغبة في الحياة. يقول عنها السارد: "الطفلة التي كنت ألعب معها في القرية وعمري لا يتجاوز عشر سنوات، شاخت فجأة . جفت تلك المياه التي كانت تجري في وجنتيها، وانتشرت خطوط عريضة في تقاسيم وجهها. اختفت الطراوة .."⁸ . ولا يخفى ما في هذه الفقرة من إيجازات مجازية ؛ فكما جفت المياه من وجنتي "سعاد" ، جفّت في أرض "غمارة". والواضح أن هذا التماثل بين صور الذوات والأرض، يجعل البعد التصويري في رواية "بيت النار" موسوما بسمه خاصة ، وهي سمة التمثّل المنسجم للأرض وسيرة الإنسان وصورته .

وما يجعل الأحداث المذكورة تشكل ما يسمى "العُقدة" وقوفها في طريق "مختار" و"فلورا" وهما يبحثان عن السكينة والراحة من جهة، ويرغبان في ترجمة الأرض والإحساس الإنساني بها في كتابة تجمع بين الصفتين التاريخية والإبداعية.

⁷ "بيت النار" . ص: 284.

⁸ "بيت النار"، ص: 114.

وليس غريبا أن يرتبط التعقيد الروائي بوصفه فلسفة إبداعية بالعقدة السردية، فهذه الأخيرة آية في يد المؤلف يشغلها انطلاقا من رؤيته للواقع وفهمه له، أو هي أداة من أدوات التعقيد الروائي يعمل المؤلف على استثمارها حسب متطلبات رؤيته الإبداعية الموجهة لفعل الحكيم. وبالنظر إلى طبيعة العقد السردية التي رأينا أنها تتحكم في تفصلات الأحداث في "بيت النار"، يمكن القول إن هشام مشبال كان واعيا بإمكانياتها في ترجمة الشعور بالقلق المتواصل على تحولات "عمارة" بين مرحلتين زمنييتين، وعلى الفجيرة التي باتت تسكن النفوس، وتترسخ في الشعور الجمعي اتجاه الأرض والمستقبل.

2- الخصائص الشعورية للشخصية:

على غرار بناء الحدث بناء متوافقا مع رؤية القلق، عمد هشام مشبال إلى بناء الشخصيات بناءً قلقا على المستويين الشعوري والسلوكي؛ فمعظم الشخصيات في الرواية، تبرز في صور باهتة، مع الإشارة إلى أن السارد يبني صورة الشخصية في الوقت الذي يُقدّم فيه التفسيرات التي تبين أسباب ارتباطها بالخصائص المعروفة عنها؛ فعلى سبيل المثال، كان السارد يُفسّر بواسطة تقنية "الاسترجاع" ما يجعل "يونس" شخصا ضائعا وفضا وبارد الشعور، ولا يكتفي بتقديمه فقط؛ وبيان ذلك أنه تقصى قصته الحزينة مع "سعاد"، وحاول توضيح أثرها على شعوره وسلوكه.

ولعل هذا الأسلوب في بناء الشخصية يجعل القارئ أكثر تفهما للسلوك، ويبعده عن ردة الفعل العاطفية التلقائية. وفي هذا الصدد يقول تيري إيجلتون وهو يتحدث عن البعد الواقعي في خصائص الشخصية الروائية: "لو تمكنا من فهم العالم من وجهة نظر الآخر [الشخصية]، لأصبح لدينا إحساس أكبر بكيفية تصرفهم [الشخص] على هذا النحو والسبب الذي يدفعهم إلى ذلك. وبهذا سوف نكون أقل نزوعا إلى تقريعيهم تقريبا متعاليا. الفهم يعني التسامح"⁹.

وجدير بالذكر أن بناء الشخصية بهذه الطريقة، يبعدها عن الاعتقاد بوجود اعتبارية تربطها بوظائفها. وهذا الاختيار السردية نفسره بكون رواية "بيت النار" تنحو منحى نقديا واقعيًا، يروم البحث عن أسباب المشكلات، ويتقصى أصول الأزمات ودوافعها، مع بُعده عن تقديم الإجابات

⁹ تيري إيجلتون: كيف نقرأ الأدب. ترجمة: محمد درويش. دار العربية للعلوم ناشرون (بيروت)، ط1، 2013. ص: 103.

وظيفة " القلق " في بناء الشخصية في رواية "بيت النار" لهشام مشبال

الجاهزة، والمعالجة المتعالية للواقع والفعل الإنسانيين. لكن هذه الملاحظة، لا تمنعنا من القول إن هشام مشبال احتفظ في روايته، بمساحة بيّنة فيها أن كثيرا من الأمور تظل عصية على الفهم. وعلى سبيل المقارنة ، يخالفُ بناء الشخصية على هذا النحو بناءها في الروايات ذات المنزع النقدي الوجودي؛ ففي هذا النمط الروائي الأخير نتعرّف الشخصية بوصفها معطى جاهزا، لا نملك تفسير خصائصه إلا في ظل مبدأ عام ، وهو عبثية المفارقات الوجودية ، أما الرواية النقدية - الواقعية فإنها لا تتوانى عن إثارة الأسئلة والتفاعل معها سجاليا . وهنا لا بد من التنبيه إلى أن البعد الواقعي في الرواية يكون فجا عندما ينخرط في التسجيل الحرفي للوقائع ، وهذا ما تجنّبته رواية "بيت النار"، حين اختارت رصد تحولات الذات في واقع انتكاسي ، عبر آليات جمالية ، تتمثل في خلق طاقة تصويرية- مجازية قادرة على تخييل التفاصيل .

والأمر المشترك بين جل الشخصيات في "بيت النار" اتصافها بالوجوم والقلق والشعور بالتعب من الحياة : "مختار" - الجدة "حمامة" - الحالة "رحمة" - "يونس" - "سعاد" - العم الطاهر " ... مع تسجيل التفاوت في حدة هذه الصفات، حسب وعي الشخصية ، وتجربتها ، وما راكمته من متاعب ومشاق . وفي هذا الصدد تجدر الإشارة إلى أن القلق (يتخذ صورة الاكتئاب في غالب الأحيان) أصبح أمرا متوارثا في عائلة "مختار" ؛ فقد انتقل إليها من أمه الراحلة ، وأصابته عدواه جدته "حمامة" وخالته "رحمة".

وبخصوص شخصية "مختار" ذات الحضور القوي في النص، من خلال المشاركة في الأحداث وفعل الحكيم أيضا، فإنها لا تفتأ تقدم نفسها للقارئ على مدار فصول الرواية، وكأن الأمر يتعلق بتقديم الشخصية شعوريا، مع البحث عن أصول خصوصيتها الشعورية (القلقة) تلك. وحسب مقاطع كثيرة جدا في الرواية، فإن أهم التجارب التي وسمت شخصية "مختار" وجعلت منه إنسانا مضطربا ومتقلب المزاج ومسكونا بالحزن، هي:

- قضاء فترة في السجن عقابا له على مواقفه السياسية.
- فقدان الأم قبيل الدخول إلى السجن، وفقدان الأب بعد ذلك.
- الاغتراب مدة طويلة في بلاد المهجر.

د. حسن الطويل

- إخفاق العلاقة العاطفية التي جمعتها ب "حياة"، والشعور بالذنب اتجاه "سعاد" التي جمعه بها اللقاء الجنسي المغلّف بالندم.
- الإحساس الحاد بمواقف الحياة وحوادثها المؤلمة.
- الوعي بمفارقات التاريخ والأرض في المنطقة التي ينتمي إليها.
- انتقال التوتر وراثيا إليه (ورثه عن أمه كما أشار إلى ذلك في مواضع كثيرة من الرواية)

ورغم كل هذه الأسباب تظل شخصية "مختار" عصبية على الفهم، وهو نفسه يُدرك هذه الحقيقة، ويتساءل كثيرا عما يجعله موسوما بتلك الطباع التي تعدّب صاحبها ومن حوله معا. ولعل "مختار" كان يصارع في الرواية طباعه أولا لكي يستطيع العيش بسلام، ولكي يستطيع التفرغ للكتابة والإبداع. وقد كانت "فلورا"، الشخصية المختلفة عن البقية، وذات الصفات النفسية الإيجابية، تساعده في صراعه مع طباعه القاسية، وتحاول دفعه إلى الانخراط الايجابي في الحياة من جهة، وإلى ممارسة هواية الكتابة من جهة أخرى .

والواضح أن اختيار "ضمير المتكلم" في الرواية كان ملائما جدا لصيغة "تقديم الشخصية" الطاغية عليها ، وكما يقول عبد الملك مرتاض، يُعد ضمير "الأنا" معادلا "من بعض الوجوه ، لتعرية النفس ، ولكشف النويا أمام القارئ"¹⁰. ورواية "بيت النار" بهذا الاعتبار، تقترب من أنواع الكتابة الذاتية المهتمة بمعالجة الذات الإنسانية إبداعيا ، وعبر التغلغل إلى دفائها وأسرارها، ورصد تفاعلاتها مع محيطها والذوات الآدمية الأخرى، وتتبع تشكّلها، وخطوط الصراع الذي يميز وجودها في العالم.

وقد استعان هشام مشبال بإمكانيات التصوير البلاغي ليجعل شخصية "مختار" تتمكن من الحديث عن إحساسها المتناقض، وعن رؤيتها الأشياء حولها. إن التصوير بالنسبة إلى "مختار" هو الوسيلة التي يدرك من خلالها ذاته والعالم، وهو الآلية التي تسمح له بوصف ما حوله، وبترجمة ما

¹⁰ عبد الملك مرتاض : في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد. سلسلة عالم المعرفة (الكويت)، ع 240، 1998. ص: 160.

وظيفة " القلق " في بناء الشخصية في رواية "بيت النار" لهشام مشبال

يريد قوله بنوع من القلق المغلف بالسوداوية. يقول عن الأجواء التي أعقبت قتل "يونس" لأحد شبان القرية (عباس) مثلاً:

" الأضواء المنبعثة من أعمدة الإنارة المتهالكة باهتة وشاحبة مثل الموت. صراخ الأطفال حاد ومزعج. عند جذع الشجرة زوجة عباس وقد صارت مثل قطعة صنم .. تمسك طفلها الصغير الذي يئن بكفيها وتقبّله في جبينه ورأسه ولا تبكي أو تنتحب. يتصاعد الصراخ المثقل بالألم ويغطي سماء القرية. أنين الطفل يتردد صدها في عقلي المتعب تزيد من وطأته رائحة الحشيش التي تملأ المكان؛ ووجوه عابسة خشنة مجردة من الأحاسيس. جاءت سيارة الإسعاف تنشر أضواءها الساطعة في الفضاء المعتم. حملت الضحية وأسرعت مخلفة وراءها صفيراً مدوياً يخنفي رويدا رويدا .. "11 .

يعكس هذا النمط من التصوير نظرة "مختار" لمحيط قريته، كما يعكس شعوره بالنفور مما حوله واستثقاله للحياة في ذلك الفضاء. ومن الآليات التصويرية الحاملة لخصوصية "مختار" بعض التشبيهات الهادفة إلى تصوير تفاصيل القرية في صور مؤلمة ومؤثرة، مثل:

- "الأضواء المنبعثة من أعمدة الإنارة المتهالكة باهتة وشاحبة مثل الموت"

- "عند جذع الشجرة زوجة عباس وقد صارت مثل قطعة صنم"

في الصورة الأولى رام السارد تصوير ضعف الإنارة المنبعثة من أضواء القرية من خلال صورة الموت المقترنة بالشحوب والانطفاء، وفي الصورة الثانية تبرز زوجة عباس، وهي فاقدة للقدرة على الفعل والحركة من أثر الصدمة، في هيئة صنم جامد. والحق أن معاني الشحوب والجمود الكامنة في هاتين الصورتين، لا تترجمان شخصية "مختار" وصورة القرية فقط؛ بل تتعديان ذلك إلى التشكُّل في هيئة سمة نصية تستحوذ على لغة الرواية ومكوناتها الحكائية.

3- الإطار الزمني وصيغ الخطاب الروائي:

اعتمد هشام مشبال، في الرواية قيد التحليل، زمناً تصاعدياً تتخلله وقفات، يعود من خلالها السارد إلى الماضي ليسترجع أحداثاً ومواقف مرتبطة به شخصياً، وبعائلته الكبيرة، وبأرض "غمارة"

¹¹"بيت النار"، ص: 102-103.

د. حسن الطويل

بصفة عامة. وهذا التوظيف الزمني سمح للرواية بأن تنتج صيغة خطابية فريدة؛ تتمثل في ورود محكيات متعددة على ألسنة عدد من الشخصيات. وهذا التناغم بين المكون الزمني والنزوع إلى حكي الأرض والذات عبر أصوات متعددة، خلق على ضفاف الرواية حكايات فرعية، بقدر ما تتمتع بنوع من الاستقلالية عن الحدث الروائي العام، تندغم في عالم "بيت النار" ، وتغني مشهده الحكائي المتنوع ، وتدعم فلسفته الإبداعية القائمة على ترجمة الإحساس الإشكالي بالانتماء إلى الأرض.

ومن هذه الحكايات الموثقة في الرواية، حكاية الخالة "رحمة" التي ثلقت بـ"القادرة" ، نظرا لما عُهد عنها من صبر وقدرة على تحمل الصعاب، وحكايتها التي روتها هي نفسها للسارد، تقص ما حدث عند إنجابها بنتها "مریم" ؛ فقد واصلت، يوم الإنجاب، ممارسة أشغال المنزل الشاقة بنشاط وهمّة، وحين أحست بالمخاض، استطاعت هي وحدها أن تنجب المولودة، وتقوم بعد ذلك إلى مواصلة أشغال البيت. و"رحمة" بهذا الاعتبار، هي رمز للمرأة الغمارية القوية والمكافحة في سبيل استمرار الحياة.

ومن الحكايات الأخرى في الرواية، حكاية الخال "الحسن" الطالب المتنقل بين قرى " غمارة " لطلب العلم الشرعي، والذي كان يحلم بمواصلة رحلته الدراسية في القرويين، ثم في الأزهر، غير أن المنية عاجلته وهو في مدرسة عتيقة في قرية "بو أحمد" . وقد ذكر السارد تفاصيل مؤثرة بخصوص حدث الوفاة هذا، من ذلك حلم جدته الذي أوحى إليها أن مكروها يحوم حول ابنها، وخبر تنقلها في قارب بحري إلى "بو أحمد" بعد سماعها بمرض الابن، وما يتعلق بنقل جثمان الراحل إلى قريته الأصلية في القارب نفسه.

أما الحكاية ذات الحضور القوي في "بيت النار"، فهي حكاية جد "مختار" مع الجهاد ضد المستعمر الإسباني تحت قيادة الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي، والتي أخذها السارد من أكثر من مصدر شفهي، واستمع بشأها إلى عدد لا بأس به من كبار السن الشاهدين على بعض الوقائع المرتبطة بالجد المجاهد. وقد جاءت هذه الحكاية متفرقة في ثنايا الرواية، وكان "مختار" يستحضر جزءا منها كلما سمحت له الروايات التي يسمعه بذلك.

وظيفة "القلق" في بناء الشخصية في رواية "بيت النار" لهشام مشبال

ثم هناك حكايات متعلقة بما ينقله السارد من كتب التاريخ (على سبيل التناص الإبداعي) من أخبار لها علاقة بـ "غمارة"؛ كما هو الحال مع أخبار "الدرويش" المنقولة من كتاب "المغرب المجهول" لمولييراس، والذي يزور قرى غمارية كثيرة، ويسجل بشأها مذكرات حول العادات والتقاليد، وجميع ما يتعلق بنشاط الإنسان في ربوعها .

والأمر اللافت في هذه الحكايات أنها تمنح الرواية نشاطا استثنائيا؛ فقد حولتها إلى مائدة للحكايات، وجعلت الشخصيات أصواتا لا تنضب من الحكيم، وتميل إلى توثيق ماضي القرية بقصص تضح بالحياة والحركة. وقد حرص هشام مشبال على وسم هذه الحكايات بصفة التعدد؛ حيث أسند فعل الحكيم إلى شخصيات متنوعة، وذات ثقافات متباينة، وجعلها تحكي على مستويات متعددة: تاريخ المقاومة - سيرة المرأة المكافحة - سير أسماء عابرة - صورة القرية الاجتماعية والثقافية ...

ولعل السارد كان يمارس بهذا الحكيم الجذاب نوعا من "الميتالغة"؛ فما قدمه من حكايات، تمثل جزءا من الرواية التي كان يعتزم كتابتها، ففي الوقت الذي كان يحدث "فلورا" عن رغبته الملحة في الكتابة، ويطلعها، ويطلع معها القراء، على هذه الحكايات الجزئية التي حصل عليها أو كتبها، كانت رواية "بيت النار" تكتب نفسها، وتتشكل من هذا الحكيم الجزئي.

وإلى جانب وظيفة تشكيل النص الروائي، تؤدي هذه الحكايات وظائف أخرى من صميم رؤية "القلق والتأزيم" التي يصدر عنها هشام مشبال في هذا العمل السردية، مثل:

- وظيفة خلق المفارقة بين الماضي والحاضر: تتمثل في إيجاء السارد بأن الحاضر لا يمثل إصرار الماضي وأمله؛ فإذا كان الجد قد جاهد من أجل طرد المستعمر من البلد، فإن الواقع الآني يؤكد أن الاستقلال حمل إلى الأرض الانتكاسات تلو الأخرى، ولم يحقق الانتظارات المنشودة، ودبر رجاله الأرض بأساليب طائشة وغير مجدية.

- وظيفة التأريخ التخيلي لأحداث الماضي: يتميز تناول الروائي للأحداث الواقعية (ذات الطابع التاريخي) بإثارة المشاعر الإنسانية، وبلفته النظر إلى دقائق الأمور المتصلة بالوجدان،

د. حسن الطويل

والمؤثرة في الفرد والمجتمع والتاريخ نفسه. وما جعل تناول هشام مشبال للتاريخ في روايته عملاً مميزاً، هو تبيّره لوقائع الجهاد ضد المستعمر الإسباني من خلال شخصية الجد، وتتبعه لامتدادات هذه الوقائع في شخصيات عائلة الجد نفسه؛ حيث أن حفيده "مختار" أُلقت به آراؤه السياسية في السجن، ثم اختار الاغتراب في الخارج مدة طويلة، وحين عودته إلى الأرض، أحسّ نفسه يعود إلى أرض غير التي تركها، وغير التي جاهد من أجلها جدّه، وحلم بأن يكون لها شأن في المستقبل.

وبخصوص مُكوّن المكان في الرواية، فإنه لا ينفصل عن الزمن¹² المترواح بين الماضي والحاضر؛ فالسارد على نحو ما كان يعود إلى الماضي من أجل حكي الذات والأرض، رغبةً في الاستشكال الإبداعي لحجم التفاوت بينهما، كان ينبّه إلى مفارقات المكان هو الآخر. فالقرية بوصفها فضاءً مكانياً تدور فيه أحداث الرواية، تسجل تراجعاً مُفجعاً. وقد عمد السارد، في مواقف كثيرة، إلى تشغيل آلية التصوير البلاغي من أجل تقلد هذا التراجع في صورة محسوسة مؤثرة.

ولعل ما حدث في نهاية الرواية بخصوص إحلال "كورنيش" مشوّه في ساحل القرية، يرسخ هذا الانطباع عن المكان. يقول السارد عن إحساسه بهذا التحول: " قليل من الدفء الممزوج بالضيّق غمرني وأنا أشرب حليب الماعز الطبيعي بالعسل. فقد حوّلت السيارات الرباعية التي تمر فوق الكورنيش الحديد وهي متكدسة بالبشر مخلّفة وراءها زوبعة من الغبار القاتل، طُعّم العسل إلى علقم. توافدت عشرات السيارات الكبيرة والصغيرة.. يتسلل منها جموع من المتعطّشين للبحر. نصبوا خيامهم وصار شريط البحر الساحلي مثل حي عشوائي قدر. أما شجرة جدي التي اقتلعت فبيني مكانها مرحاض عمومي ودوش خاص بالمخيم"¹³.

¹² لا ينفصل المكان في الرواية عن الزمن وبقية المكونات الحكائية الأخرى؛ فالرواية تخطيط مترابط الأجزاء، يربط الفضاء المكاني بوجهات النظر والأحداث والشخصيات وزمن القصة، " وبطائفة من القضايا الأسلوبية والسيكولوجية...". انظر: حسن مجراوي:

بنية الشكل الروائي. المركز الثقافي العربي (الدار البيضاء)، ط1، 1990. ص: 32.

¹³"بيت النار"، ص: 267.

وظيفة " القلق " في بناء الشخصية في رواية "بيت النار" لهشام مشبال

تذكرنا هذه النهاية المأساوية للمكان في الرواية بنهاية الإنسان فيها؛ أي نهاية الغرق في البحر التي أشرنا إليها سابقا ، والتي ضاعفت صدمة "مختار" ، وأججت قلقه المعتاد . وبهذا الاعتبار تكون نهاية الرواية نهاية متشابكة، تروم تأكيد القلق على واجهات كثيرة ومتعددة.

وقد حرص السارد على توظيف "شجرة الجذ" توظيفا رمزيا يمتد من بداية الرواية إلى نهايتها ؛ ففي البداية يتعرّف القارئ على هذه الشجرة من خلال الحوار الدائر بين "مختار" وجدته حمامة :
" ظللتُ أسأل وظلت جدي صامته للحظات ثم ثبتت عينيها الصغيرتين في ركن الزاوية البعيدة وقالت بشرود:

- لا زلت أتذكر حين رافقتُ جدّك منذ سنوات طويلة إلى هذا المكان المهجور .. وغرس أول شجرة .

لم أفهم شيئا .. ظللت مشدودا وشاردا . قلت لها وأنا ألملم خيوط دهشتي الطارئة :
- هل كنت سعيدة وأنت ترافقين جدي؟

قالت مرة ثانية:

- لا زلت أتذكر حين رافقتُ جدّك منذ سنوات طويلة إلى هذا المكان المهجور .. وغرس أول شجرة.¹⁴

يوضّح هذا الحوار طور الأمل الذي مرّت به القرية ، كما يُلفت النظر إلى نشاط الإنسان داخلها ، وإصراره على الإعمار والإعداد للمستقبل بروح متفائلة . لكن ما تقوله الجدّة كان حكيما يسترجع زما بعيدا ، ويقدمه بوجوم وشرود . أما عن اللحظة الراهنة ، فإن القارئ وهو يتتبع فصول الرواية، يصل إلى اللحظة التي تُعلن نكسة المكان (تصادف نهاية الرواية كما سبقت الإشارة) بشكل صارخ ؛ وهي لحظة اقتلاع "شجرة الجذ" بحمولتها الرمزية المتمثلة في الحياة وروح التفاؤل . إن "شجرة الجذ" بهذا الاعتبار، تمثل سيرة رمزية تُلخّص السيرة الانتكاسية للشخصيات والأمكنة

¹⁴ نفسه . ص: 24.

والأزمة في رواية "بيت النار" ، وهي بذلك تحفّز الطاقة التأويلية للقارئ ، وتدعوها إلى التفاعل المثمر مع أبعادها الرمزية العميقة .

ومن صور السرد المجازي التي تُلخّص تحولات المكان ، طبيعة الخطاب المُعتمَد في سرد الرّحلة التي قام به "مختار" و"فلورا" إلى منطقة "الجهة" من أجل استرجاع سحرها الذي يسكن الذاكرة ؛ فقد وظّف السارد ملفوظ "الانحدار" توظيفاً يعكس تحولات "الجهة" السلبية، ويوحى بانحدارها إلى واقع مؤسف . يقول: " انحدارنا عبر الجبل . بدت الجهة مثل صحن في قعر بئر . انحدرت بقدمين لا تملكان شجاعة القرار .."¹⁵ . وحين ينتهي السارد من وصف هذا الانحدار المادي المرتبط بالنزول إلى مركز "الجهة" ، تبدأ رحلة القارئ مع "الانحدار" الحضاري : " الرائحة العطنة من جديد؛ بقايا السمك المتعفن ممزوجة بالمجاري التي تصب في الميناء [...] بقايا أشجار نخيل قديمة نخرها السوس [...] كنت أتأمل الأرصفة المتآكلة وقد غطت حجارها طبقات الأتربة المتركمة وملائها بالحفر المنتشرة على صفحاتها فصارت أشبه بحقل جرفته السيول"¹⁶ .

وقد شكلت هذه المشاهدات ، وأخرى أكثر قساوة ، صدمة للزوجين ، وشوشت على صورهما الذهنية عن منطقة "الجهة" ، التي عُرفت بجمال الفضاء ، والتعايش بين الطوائف الدينية المختلفة ، والحب ، والأناقة والسحر . ولعل العبارة التي جاءت على لسان ف"فلورا" ، وهي تسأل "مختار" عن إنجاز الحكومة المغربية بعدما لاحظت أن ما شيده الإسبان بدأ يتآكل ويندثر ويضيع ، تبيّن أن التحلي عن البناء يعني الاستسلام للانحدار :

" سألتني [فلورا] وعيناها تحملان دهشة وأسى :

- ألم تبين الحكومة المغربية شيئاً بعد الاستقلال؟"¹⁷

¹⁵ نفسه. ص: 188.

¹⁶ نفسه . ص: 188-189.

¹⁷ نفسه. ص: 189.

وظيفة " القلق " في بناء الشخصية في رواية "بيت النار" لهشام مشبال

خلاصة:

حاول هذا المقال استخلاص السمات التي تأسست عليها رواية "بيت النار" لهشام مشبال، انطلاقاً من نُزوعها إلى الإحاطة بأزمة الشعور الإنساني الناشئة عن الوعي الحاد بتحويلات الأرض، واختلالات المجال، وتراجع القيم الإنسانية في فضاء يسلم نفسه للرتابة والقبح والخمول. وقد تبين لنا في المحاور التي نُحضت بهذه الغاية البحثية، أن الرواية ترجمت رؤيتها الإبداعية من خلال المستويات التالية:

- تعقيد الحبكة السردية على نحو يوحي برسوخ الأزمة في فضاء الأحداث.
- تكوين الشخصية الروائية تكويناً شعورياً قلقاً ومأزوماً.
- توظيف المكوّن الزمني بما يسمح بخلق تعددية حكاية تخلق المفارقة بين الماضي والحاضر.
- توظيف التصوير البلاغي توظيفاً قادراً على الترجمة المجازية لخصوصية الإشكال الإبداعي في الرواية.

المصادر والمراجع:

● **المصدر الروائي:** هشام مشبال: بيت النار. دار الأمان (الرباط)/ منشورات الاختلاف (الجزائر)/ منشورات ضفاف (بيروت)، ط1، 2019.

● المراجع:

- تأليف مشترك: معجم السرديات. إشراف: محمد القاضي. دار محمد على للنشر (تونس)، ط1، 2010.
- تيري إيجلتون: كيف نقرأ الأدب. ترجمة: محمد درويش. دار العربية للعلوم ناشرون (بيروت)، ط1، 2013.
- حسن مجراوي: بنية الشكل الروائي. المركز الثقافي العربي (الدار البيضاء)، ط1، 1990.

د. حسن الطويل

- عبد الملك مرتاض : في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد. سلسلة عالم المعرفة (الكويت)، ع 240، 1998.
- محمد مشبال : البلاغة والأدب، من صور اللغة إلى صور الخطاب، دار العين للنشر (القاهرة) ، ط 2010.
- مشبال محمد، الرواية والبلاغة نحو مقارنة موسعة للرواية العربية. دار كتارا للنشر(قطر)، ط1، 2019.
- ميلان كونديرا: فن الرواية . ترجمة : بدر الدين عرودكي . دار الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع (دمشق) ، ط1، 1999 .